

# التراتبات المجالية والصراع الاجتماعي بالمغرب ؛ قراءة في سيرورة العلاقات البدوية الحضرية بمراكش في الجنوب المغربي

عبد الفتاح الزين

لئن كانت فاس المدينة الحضرية مدينة البورجوازية الناشئة والأنتلجاسيا التي استطاعت أن تفرض علاقات هيمنة على محيطها القبلي اقتصادياً وسياسياً، فإن مراكش المدينة البدوية تشكل الحالة النقيضة للحالة الفاسية.

فقد تأسست مراكش في العهد المرابطي أيام يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م - أي بعد حوالي ٢٦٧ سنة حسب التاريخ الهجري، و٢٥٣ سنة حسب التاريخ المسيحي من بناء فاس. وتأسسها جاء رغبة في تجاوز النظام الإدريسي القائم والاستدلال على عظمة الدولة الجديدة. ولعل اختيار موقعها لعبت فيه عوامل سياسية واقتصادية وجغرافية: فمن جهة اعتباراً للقوة والعصبية وكذلك لكونها بوابة الصحراء في وقت بدأت تتقهقر فيه وضعية سجلاسة ومن جهة أخرى المعطيات الجغرافية - آنذاك - التي ساعدت على تعمير المدينة (الثروة المائية - تربة الحوز... ). ولأهميتها كان كل توتر سياسي يؤدي إلى انقسام المغرب إلى مملكة فاس ومملكة مراكش. ومع ذلك ستظل مراكش عاصمة الملك حتى العهد المريني حيث ستردهر مدينة فاس، في حين ستعرف مراكش تقهقراً لا مثيل له<sup>(١)</sup>. على أنه في العهد السعودي سترجع المدينة إلى سابقة عهودها، في حين

---

J-L. L'Africain. -Description de L'Afrique. Trad. Epaulard; ed. Maisonneuve Paris; 1980; (١) pp. 99-108.

ستكتفي فاس بالدور الثاني. ومع ظهور الدولة العلوية سيظل الصراع بين مراكش وفاس حاداً من حيث حسم مشاكل البيعة التي اندلعت بعد وفاة المولى اسماعيل بشكل كبير، وكذلك خلال الصراع حول الخلافة بين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ<sup>(٢)</sup>.

ونظراً لموقع مراكش في الجنوب (أي في الأطراف) سيظل هم المخزن هو ضمان الولاءات، ولذلك ستعرف المدينة وبالتالي منطقتها إنزالاً مكثفاً للقوى المخزنية على مر عصور الدولة العلوية لدرجة أنه يمكن أن يسحب اسم الجياشة(\*) على كل القبائل القاطنة داخل المنطقة المراكشية<sup>(٣)</sup> وهذا ما يجعل الحديث عن القبائل حول مراكش لا ينبني على أسس موحدة، إذ إن الطلاقات المخزنية الإدارية (الجياشة - العبيد...) قد تغلغت في المحيط البدوي لمراكش والمسمى بالحوز عموماً. ويمكن أن نرى في طغيان هذه التسمية التي سارت علماً على المنطقة البدوية المراكشية بل إنها كانت تطلق على القبائل القاطنة حول مراكش بنعتها قبائل الحوز، هذه التسمية لها أكثر من دلالة على علاقات إدماجية بين مراكش وباديتها. غير أن استقرار قبائل الجياشة حول المدينة جعلها محكومة بباديتها، كما أن التواجد المكثف للزوايا بالحوز والجبال الأطلسية المجاورة وتواجدها - هي الأخرى - على الأطراف، سيفرض على المخزن حكم المنطقة من خلال القوى المحلية.

وأول ما يلاحظ - نتيجة لهذا - هو الانصهار البشري الذي تحقق في الحوز على صعيد الأنساق القبلية. فتعاقب الدول أدى إلى تمازج القبائل والأفراد من أصول مختلفة (الفارين - المهاجرين - المشغلين في أراضي المخزن أو الأعيان - الجياشة...) إلى حد أنه لوحظ التخلي عن كل وهم قبلي لدى بعض القاطنين

(٢) انظر مثلاً فتوى علماء فاس ضد مولاي عبد الحفيظ الداعي لخلع المولى عبد العزيز، وقد أوردها NEHLIL. -Lettres chérifiennes (Ière partie: textes). 128 documents en fac-sémi; Ecole supérieure de langue arabe et dialectes berbères de Rabat; Ed. Guilmoto; Paris; 1915.

وهي تحمل رقم: CXXIII

(\*) القبائل التي كانت تقدم خدمات عسكرية مقابل تمتعها بامتيازات عقارية (إقطاعات متنوعة).

PASCON, P. - Le Haouz de Marrakech. Rabat; 1977; p. 152.

(٣)

بالحوز والذين أصبحوا يسمون «بالسكان»<sup>(٤)</sup>. وما ساعد على ذلك هو ارتباط الحياة البدوية بالمدينة التي كانت حياتها الاقتصادية مبنية على الأنشطة الفلاحية أساساً، بل أبعد من ذلك أن سكان المدينة أصولهم بدوية، فهم لم يتخلوا عن أصولهم الاقتصادية (= الفلاحة والرعي). وقد برز هذا الاندماج البدوي في الحياة الحضرية منذ العهد المريني على أثر وفاة السلطان عبد الرحمن بن إيفلوسن حيث سقطت المدينة تحت حكم كبار قبيلة هنتاة الذين استقلوا بالمنطقة وأطلقوا على أنفسهم لقب السلطان<sup>(٥)</sup>.

وشهد الحوز في المجال الفلاحي تطوراً كبيراً بالنسبة لباقي مناطق المغرب سواء على مستوى التقنيات الفلاحية المستعملة أو على مستوى التنظيم للاستغلال الفلاحي رغم ما قد يشد انتباهنا من تقهقر لبعض الأنشطة الفلاحية (قصب السكر مثلاً). وإن كانت عمليات الترحيل والتعمير التي استغلها المخزن في تدعيم التوازن السياسي لصالحه قد ساعدت على التمازج القبلي وتدمير القبيلة نوعاً ما من الداخل فإن هذا التطور الحاصل في المجال الفلاحي بتنوع تقنيات الاستغلال والأنشطة الفلاحية ثم في اتحاد وثيق مع المعطيات الجغرافية: نسق الانتاج (رعوي)، رعوي - زراعي، زروعي، غراسي، السكن (جيلي) بسهول الدير (المسقية) بسهول البور). ولكن هذا التنوع تقاطع كذلك مع المعطيات البشرية (بربري/عربي) والتاريخية: حسب الأقدمية (ما قبل القرن الحادي عشر/بناء مراکش، في القرن السادس عشر/العهد السعدي، في القرن التاسع عشر/بداية التسرب الأجنبي). وخلال هذه السيرة «تطوقت» مراکش تراكزياً<sup>(٦)</sup> بحزام من الضيعات والعروضات في شكل عزيبات أو اقامات أساسها الجياشة والنائبة (= الجياشة القدماء).

بهذا الشكل ظلت مراکش محكومة بباديتها، حيث إن العوز لم يشكل هامشاً

(٤) PASCON المرجع السابق، ص: ١٥١.

(٥) AFRICAINE (L') J.L. - مرجع مذكور، ص: ١٠٣.

(٦) concentricement/concentrically.

ولا حتى ضاحية. وما يلاحظ من تواجد مساحات فلاحية للاكتفاء الذاتي داخل الأسوار بالنسبة لغالبية المدن، فإن مراكش يمكن اعتبارها استثناءً ربما لطبيعة التنظيم المجالي الذي اتخذته الدولة المرابطية، فعلي بن يوسف هدم أسوار فاس لا لأن المرابطين لم يكونوا يخشون القبائل المجاورة اعتباراً من «إنما أسوارنا أسيافنا وعدلنا»<sup>(٧)</sup> ولكن كذلك لطبيعة النسق الاجتماعي الذي أفرز الدولة المرابطية والذي اعتمدت فيه على أساس قبلي إشعاعه غير مرتبط بمجال حضري بقدر ما هو ربط للمدينة كنسق حضري بالمجال الحيوي والذي يتجاوز غالباً النسق المبني لدمج الضاحية. إن المدينة بالنسبة له تعبير عن الدوار الأصلي في شكل متقدم وذلك لما توفره العصبية من دعم. غير أن هذه العصبية تتلاشى بفعل الاستقرار لتفسح المجال للتمازج القبلي وبروز دور الزوايا الذي بدأ يتعاظم منذ القرن الخامس عشر تاركةً وراءها علاقات اندماجية بين المدينة وباديتها. وقد عرفت هذه الزوايا - وفي منطقة الجنوب على الخصوص - اضطهاداً من طرف المخزن العلوي الذي أعاد تنظيمها تحت الحكم الإسماعيلي. غير أن هذا لم يمنع من منح ظهائر التوقير والاحترام للزوايا وحتى فئات الشرفاء التي كانت تتعامل مع الحكم المركزي إما بتفويض أو باعتبار نفسها كامتداد للنظام الشريف القائم. وتتضمن هذه الظهائر إعفاء من الضرائب أو استقلالاً بتسيير شؤونها الداخلية والجوهرية داخل النظام المخزني وفي ارتباط معه. وقد لعبت هذه الزوايا دوراً كبيراً في مرحلة ما قبل الاستعمار في ملء الفراغ السياسي جهوياً. كما شكلت أهم عامل في مخزنة العلاقات داخل المجال الحوزي وتهميش دور النظام القبلي أكثر فأكثر باحتوائه ضمن الولاءات.

وما أن حل القرن التاسع عشر حتى بدأت تطفو إلى السطح قوة محلية جديدة تستمد نفوذها من أساسها القبلي ووظيفتها المخزنية وقد تمثلت هذه القوة

(٧) ابن القاضي - الجذوة(\*)، ص: ٥. وسَيَبْنِي سورها عند بداية ظهور المهدي بن تومرت بجبال المصامدة، وقد بناه علي بن يوسف عام ٥٣٦هـ/١١٣٢م (انظر: بن عبد الله عبد العزيز - الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية: معلمة المدن والقبائل - ملحق ٢؛ مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية؛ الرباط، ١٩٧٧. ص ٣٣٩).

(\*) تحقيق عبد الوهاب بن منصور؛ دار المنصور؛ الرباط؛ ٧٣ - ١٩٧٤.

المحلية في القواد. هؤلاء الذين بدأت مناوراتهم تقريباً في نفس الظرف الذي انطلقت فيه الفئات التجارية الفاسية في لعب أدوار طلائعية داخل المخزن الذي بدأ يعرف تفككاً لم يفتأ في التزايد. ففي عهد المولى عبد الرحمن بدأت مناورات ايبباط أحد أشياخ الأطلس لتدعيم نفوذه على حساب قائد دمنا، غير أن هذا سيدفع السلطان الذي استدعاه إلى مراكش لمنحه قيادة كلاوة. وبعد وفاة ايبباط سنة ١٨٨٣، سيتولى الأمر ابنه المدني الكلاوي الأخ الأكبر للتهامي. في هذا الوقت بدأت قوة الكندافي ونفوذه يطفوان على السطح في عهد المولى محمد بن عبد الرحمن وبالضبط منذ ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، حيث وشى قائد الجيش السوسي أحمد بن مالك بالكندافي لدى السلطان<sup>(٨)</sup>، غير أن السلطان سيكرم وفادته بعد أن قدم عليه إلى مراكش مستأماً بالمرابط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت، وولاه على إخوانه بعد أن كان هو الآخر شيخاً من أشياخ قبيلة كندافة. وهكذا سيظهر عدد من القواد في فترة تحلل المخزن التي صاحبها ارتفاع ضغط القوى الأجنبية. ومن هؤلاء القواد: البياز - المتوكي - العيادي - المنهي . . الخ. وبهذا سيفتح المجال للتصارع حول وسط النفوذ داخل المنطقة المراكشية والذي سيفضي في بداية القرن العشرين قبيل إمضاء معاهدة الحماية إلى احتكار النفوذ داخل المنطقة من طرف ثلاث قواد كبار: الكلاوي والمتوكي والكندافي. وقد استطاع هؤلاء الثلاثة استثمار وظائفهم المخزنية في المجال الاقتصادي حيث كانوا يتقاضون أتعاب خدماتهم المخزنية بإطلاق أيديهم داخل مجال نفوذهم بل وحتى خارجه، بالإضافة إلى الظواهر التي حصلوا عليها وتخولهم القيام بالمهام المخزنية محل الحكم المركزي (الجباية، تسير الأملاك المخزنية، السهر على الأمن الجهوي . . .) كما كانت تنص على منحهم اقطاعات حتى من أملاك قواد آخرين تحل عنهم المخزن أو خرجوا عن طاعته. وبعد وفاة الحاجب باحماد<sup>(٩)</sup> في الوقت الذي عرف فيه تضعضع

(٨) الناصري أحمد. - الاستقصا؛ دار الكتاب - الدار البيضاء؛ ١٩٥٦؛ ص: ١٤٩ - ٤١٦ ج/٩.

(٩) في إطار الصراع على السلطة يمكن أن نقول إنه تم اغتيال باحماد وعائلته، انظر في هذا الشأن (٩) ARNAUD (DR.) L.- Au temps des mehallas. Ed. Atlantides; Casablanca; 1952 وخاصة

الصفحات ١٢٦ - ١٣١ وكذلك CHAPI M. Quelques familles du Maghzen marocain au XIXe siecle d'après REN ZIDANE. Coté a la Biblioth. de la Fac. Let. Sc. Hum. de Rabat:

TL 8 I-II. وما بعدها ١٨٧

الحكم المركزي والأطماع الأجنبية أوجهما أصبح لهؤلاء الثلاثة دور كبير جهوياً ووطنياً داخل المخزن<sup>(١٠)</sup> وسيشتد الصراع ما بين الثلاثة بحثاً عن توازن داخل الحوز والمناطق المجاورة يرضي الجميع، في حين سيعرف المغرب إمضاء معاهدة الجزيرة الخضراء التي فتحت المغرب أمام الأجانب، كما سيحتدم الصراع بين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ حول العرش، دون أن ننسى بروز الهبة. هذه الأحداث السياسية الكبرى أثرت في مجريات الصراع والتحالفات حيث كانت مبايعة الهبة تبدو مستحيلة<sup>(١١)</sup>.

ومع إمضاء معاهدة الحماية سينفرد التهامي الكلاوي - بعد وفاة أخيه المدني - بالسلطة، إذ إن فرنسا اضطرت إلى تقسيم قيادة الكندافي لظروف سياسية<sup>(١٢)</sup>، مما دفع الكندافي إلى الدخول إلى مراكش «كمقاعد». وهكذا ستوظف فرنسا الكلاوي في إطار ما يعرف بـ «سياسة القواد الكبار» كورقة ضغط على المخزن لتيسير التغلغل الرأسمالي وتخريب المؤسسات الاجتماعية عبر عنف القانون والاقتصاد والقوة العسكرية. وفي ظل الأوضاع الجديدة استطاعت فرنسا أن تستغل لصالحها قوة القواد المتصاعدة التي تغذت من هذه المساندة في التضيق على المخزن، غير أن هذه القوة ظلت مع ذلك منفصلة من القبضة الاستعمارية كما هي حال البورجوازية الناشئة بفاس، ولكن عوض الاندماج في الحركة الوطنية كانت تتقاطب مع الأطراف اليمينية الفرنسية لسحق الأجنحة الوطنية في النظام المخزني.

من هذه النظرة حول تطور القوى الاجتماعية داخل المجال المراكشي الحوزي يمكن أن نستخرج الملاحظات التالية:

(١٠) إلى درجة أنه يمكن القول إنه كان لهم دور في «صنع» السلطان انظر: PREVOST J.- El Gloui. Ed. Dialogue; 1968; p. 39 Sq وسعيد الكلاوي الكرة عند نفي محمد الخامس وتنصيب ابن عرفة.

(١١) لأن فشل الهبة كان بانحياز الكلاوي للقوات الفرنسية، خاصة وأن الهبة كان قد أخذ على عاتقه القضاء على الاستعمار ورموزه.

(١٢) PREVOST - المرجع السابق، ص: ٣٢.

١ - فالحوز كضاحية للمدينة خضع لعدة تطورات وتحديدده يثير صعوبات كبيرة<sup>(١٣)</sup>. على أن هذا يدفعنا إلى التأكيد على الظروف التي أثرت في التنظيم الجهوي للمنطقة منذ العصر العلوي والذي لعبت فيه المدينة دوراً مهماً كمحور. فالمدينة - مراكش - في أصلها لم تمثل ربما أكثر من أفراد أو كمدينة - دولة تنتظم حولها عدداً من القبائل وتراقب الأطلس بمدنه التجارية (اغمات - نفيس . . . قديماً). وقد لعبت الثروة المائية دورها في ازدهار الحياة الحضرية وربطها بالحياة القروية، وهذا ما سمح بتواجد الجنانات على هامش النسق المبني حيث الاقامات الثانوية للحضر.

٢ - ولهذا سينتظم النظام الحضري حول توظيف المجال بصفة عامة انطلاقاً من المدينة التي لم تكن اشعاعية المركز المعطيات الجغرافية للمنطقة ولما خضع له المجال الحضري من توجهات (التضاريس، وجود الأودية والغابات، صعوبة تحصين بعض المواقع . . .). فالعلاقة بين داخل السور وخارجه علاقة يومية تنتظم بتراتبية مجالية اجتماعية - وظيفية (انظر الرسم البياني آخر المقال).

٣ - حسب هذا التوجه ستحتكر مراكش الأدوار الاقتصادية داخل المنطقة الجنوبية كلها والتي ستستقطب كل الأنشطة الاقتصادية والتجارية والتي سيعمقها التدخل الاستعماري بإنشاء السكة الحديدية وإن لعبت الدار البيضاء دور القطب والمحور بين فاس ومراكش.

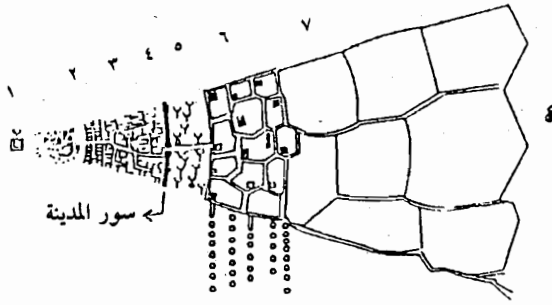
٤ - إن الصراعات بين هذه الفئة المخزنية والبورجوازية الناشئة (صراع المنهبي مع التازي والحاج المختار كمثال)<sup>(١٤)</sup> ستحتم بعد ظهور الحركة الوطنية والتي انبثقت من رحم هذه الأخيرة؛ في حين احتوت فرنسا ضمن «سياسة القواد الكبار» هذه الفئة المخزنية التي لعبت دور الدركي. وهذا ما جعلها تخسر أوراقها السياسية (انظر طلب العفو من لدن الكلاوي)، وإن حافظت على امتيازاتها الاقتصادية.

فمراكش مع كل هذا ستظل مطبوعة بمحيطها ومحكومة بباديتها التي لن

(١٣) PASCON المرجع السابق. خاصة فصل Qu'est ce que le Haouz? صفحات ١٨ - ٢٧.

(١٤) ARNAUD - المرجع السابق، ص: ١٢٩ - ١٣٣.

تفرز إلا فئة اجتماعية ذات طبيعة مخزنية - يمثل الكلاوي نموذجها الفذ - والتي ستطفو إلى السطح - كما قلنا - بفعل عوامل مختلفة ومتعددة (وجود المنطقة على الأطراف - تفكك المخزن - التدخل الاستعماري ...). فهي على طرف النقيض مع المدن الأخرى، إذ رغم تمتعها بنفوذ وإشعاع قويين يطالان الجنوب كله، فإنها لم تعرف ذلك كما عرفته فاس. فالحياة الحضرية بمراكش ليست نسقاً بالشكل الذي تكون فيه لسكانها إطار حياة شمولية، وعالمياً ونسقاً إيكولوجياً Eco-système I. لهذا بقيت مراكش مدينة يسيطر فيها النظام الاقطاعي المنبني على الوظائف المخزنية والذي يعطيها شكل بلدة يسيطر عليها البدو والتي لا يمكن ادراكها بالتجمع السكاني وحضور المخزن.



- ١ - الساحة العامة (= جامع الفنا) مع المسجد الرئيسي (= الكتبة).
  - ٢ - المناطق التجارية ومناطق الصناعة التقليدية (السوق، القيسارية الفنادق).
  - ٣ - المنطقة السكنية حول صومعة الحي.
  - ٤ - السور وبابه.
  - ٥ - المقبرة.
  - ٦ - الجنانات والإقامات الثانوية (الرياضات) المسقية بالخطارات والآبار.
  - ٧ - أراضي الزراعة مع العزيبات المسقية بالساقيات.
  - ٨ - المساحات البورية.
- رسم بياني: القطاعان الحضري والخارج عن الأسوار لمدينة مراكش (١٥) وما هو مثير للانتباه داخل هذه التراتبية حول العزل الواضح بين مجموعة القصر، المشور، الملاح، القصبة كأحياء المال والسلطة وباقي الأحياء المدنية والتي تتوزع حول ساحة جامع الفنا: مجال التبادل العمومي. وستضاف إلى هذا منذ ١٩١٢ أحياء أوربية وحي صناعي مرتبط بالمنتجات الفلاحية المحلية والذي أقيم على أرض كليز.



